﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [القصص: 86]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ تقريرٌ لردِّ النَّبيِّ ﷺ إلى مَعادٍ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ: **أحدُها:** أنَّ الآية ابتداءُ كلام مضمونُهُ تعديدُ النِّعمةِ على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ اللهَ تعالى رحمَهُ رحمةً لم يحتسِبْها، ولا بلغَها أملُهُ[1]، **والثّاني:** أنَّ الآية تقريرٌ لقولِهِ تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾، أي: سيردُّكَ إلى مَعادٍ، كما أنزلَ إليكَ القرآنَ العظيمَ الشَّأنِ وما كنتَ ترجوهُ[2]، **والوجه الثّالثُ** أنَّها دليلٌ وبرهانٌ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُؤيَّدٌ مِنْ ربِّهِ، وأنَّهُ سبحانَهُ سَيَفي لهُ بما وعدَ، ولن يتخلَّى عنهُ، يعني: إذا كنتَ تتعجَّبُ، أو تستبعدُ أنْ نردَّكَ إلى بلدِكَ؛ لأنَّ الكفّارَ يقفونَ لكَ بالمِرْصادِ؛ فانظرْ إلى أصلِ الرِّسالةِ معكَ، هل كنتَ تفكِّرُ، أو يتسامَى طموحُكَ إلى أنْ تكونَ رسولًا؟ إنَّهُ أمرٌ لم يكنْ في بالِكَ، ومعَ ذلكَ أعطاكَ اللهُ إيّاهُ، واختارَكَ لهُ[3]، وهذا الوجهُ مبنيٌّ على تفسيرِ المَعادِ بمكَّةَ المكرمة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرۡجُوٓاْ﴾: (رجو) أصلٌ يدلُّ على الأملِ[4]، وهو طمعٌ في نيلِ خيرٍ مُشرَّبٍ بالخوفِ من عدمِ نوالِه[5]، ومِنْ ذلكَ: الرَّجاءُ، وهو ظنٌّ يقتضي حصولَ ما فيهِ مَسَرَّةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۚ﴾ [النّساء: 104]، وقد يُطلَقُ الرَّجاءُ على الخوفِ، وعليهِ حُمِلَ قولُهُ:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 303.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 28، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 334.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11047.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجو).

﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الرَّجاءَ والخوفَ يتلازمانِ، فكلُّ راجٍ مُؤمِّلٌ ما يرجوهُ، خائفٌ فواتَهُ[1]، ومعنى ﴿تَرۡجُوٰنَ﴾ في الآية الكريمة: تُؤمِّل.

2) ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾: أصل (لقي) تحصيل الشَّيء بالمقابلة مواجَهةً أو تماسًا[2]، فالإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيثُ تَلْقاهُ، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[3]، قالَ سبحانَهُ: ﴿قَالُوٓاْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾ [الأعراف: 115]، ويقالُ: ألقيتُ إليكَ قولًا وسلامًا وكلامًا ومودَّةً، قالَ تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1]، وقالَ: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [النحل: 86][4]، والمعنى في الآية: يُنزَّل.

3) ﴿رَحۡمَةَ﴾: (رحم) أصلٌ يدلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأفةِ[5]، أو اتِّساع مع رقة ولين[6]، والرَّحمةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحوم، وقد تُستعمَلُ في الرِّقَّةِ المُجرَّدةِ عنِ الإحسانِ، وقد تُستعملُ في الإحسانِ المُجرَّدِ عنِ الرِّقَّةِ، نحوُ: رحمَ اللهُ فلانًا، وإذا وُصِفَ بها اللهُ سبحانَهُ؛ فليسَ يُرادُ بها إلَّا الإحسانُ المُجرَّدُ، وعلى هذا يقالُ: الرَّحمةُ مِنَ اللهِ إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميّينَ رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[7]، وقد يُعبَّرُ بالرَّحمةِ عن كلِّ خيرٍ مِنْ رِزْقٍ وغيرِهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ [الإسراء: 28][8]. والمقصود بـ ﴿رَحۡمَةَ مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: إنعامًا وتفضُّلًا منه سبحانه.

4) ﴿ظَهِيرٗا﴾: (ظهر) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[9]، يقالُ: ظَهَرَ عليه: غلبَهُ، ويقالُ: ظاهرتُهُ: عاونتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ [الممتحنة: 9][10]، والظَّهيرُ: المُعينُ، قالَ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[11]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الظَّهْرِ الَّذي هو الجارحةُ؛ لأنَّ

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رجو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي)، وردها ابن فارس إلى أصول ثلاثة ترجع أغلبها إلى هذا المعنى، أو إلى جزء منه، مقاييس اللغة: (لقي).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (لقي).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رحم).
(7) الراغب، المفردات: (رحم).
(8) السمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر)، وقريب منه قول جبل: "ارتفاع مع شدة وغِلَظٍ أو قوة"، ينظر: جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظهر).
(10) الراغب، المفردات: (ظهر).
(11) الراغب، المفردات: (ظهر).

المعاونَ يساعدُ صاحبَهُ بجوارحِهِ، وأقواها ظَهْرُهُ، ثمَّ جُعِلَ عبارةً عن كلِّ معاونةٍ وإنْ كانَتْ بغيرِ الظَّهْرِ حتَّى باللِّسانِ[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: 26]، أي: لا يُطلِعُ عليهِ[2]، والظُّهورُ: ضدُّ الخفاءِ، قالَ تعالى: ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، أي: بدا ما وعدَ اللّهُ بهِ رسولَهُ والمؤمنينَ مِنَ النَّصرِ، وفشا دينُ الإسلامِ، وأصلُ ذلكَ مِنْ حُصولِ الشَّيءِ على وجهِ الأرضِ، ثمَّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ للبصرِ والبصيرةِ[3]، والمُرادُ بالظهيرِ في الآيةِ: المُعين.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الامتنانُ بإلقاءِ الكتابِ إلى النَّبيِّ ﷺ

وما كنتَ ترجو - أيُّها النبيُّ - أنْ يُنزلَ عليكَ هذا القرآنُ، إلّا أنَّ ربَّكَ اختصك به، أنزله عليك رحمةً منه بك، فاحمَدْ ربَّكَ على ما أنعمَ بهِ عليكَ مِنْ رحمتِهِ إيّاكَ، ولا تكونَنَّ عونًا لمَنْ كفرَ بربِّكَ على كفرِهِ بهِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ مجيءِ الواوِ في جملةِ ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

اتِّساعُ المعاني وكثرتُها

اختُلِفَ في إعرابِ جملةِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، فقيلَ: الآيةُ ابتداءُ كلامٍ، مضمونُهُ تعديدُ النِّعمةِ على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ اللّهَ تعالى رحمَهُ رحمةً لم يحتسِبْها، ولا بلغَها أملُهُ[5]، وعليهِ فالواوُ في ﴿وَمَا كُنتَ﴾ استئنافيَّةٌ.

وقيل: يجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ حالًا مِنَ كافِ الضَّميرِ في ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وما بينَهما اعتراضٌ للاهتمامِ بالرَّدِّ على المُنكِرِ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(2) الراغب، المفردات: (ظهر).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 642.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 303.

للمَعادِ، أي: (فرضَهُ عليكَ، والحالُ أنَّكَ ما كنتَ ترجو ...) إلخ[1]، وعليهِ فالواوُ حاليَّةٌ.

وقيلَ: الجملةُ عطفٌ على جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلخ ... باعتبارِ ما تضمَّنَتْهُ مِنَ الوعدِ بالثَّوابِ الجزيلِ أو بالنَّصرِ المُبينِ، أي: كما حمَّلكَ تبليغَ القرآنِ، فكانَ ذلكَ علامةً على أنَّهُ أعدَّ لكَ الجزاءَ بالنَّصرِ في الدُّنيا والآخرةِ، كذلكَ إعطاؤُهُ إيّاكَ الكتابَ عن غيرِ ترقُّبٍ منكَ، بل بمَحْضِ رحمةِ ربِّكَ[2]، وعليهِ فالواوُ عاطفةٌ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

(ما) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ نافيةٌ، فتفيدُ نفيَ الرَّجاءِ في الزَّمانِ الماضي، وحرفُ المدِّ فيها يشير إلى امتداد ذلك النَّفي؛ ليشمل كلَّ أجزاء الزمان الماضي.

امتدادُ النَّفي وشموله لزمان الماضي

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿كُنتَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ للدَّلالةِ على تأكيدِ انتفاءِ الرَّجاءِ، ببيانِ أنَّ انتفاءَهُ أمرٌ مُستغرِقٌ الزَّمنَ الماضيَ، أي: وما كنتَ ترجو في سالفِ الدَّهرِ بحالٍ مِنَ الأحوالِ[3].

تأكيدُ انتفاءِ الرَّجاءِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَرْجُوٓاْ﴾:

جيءَ بفعلِ الرَّجاءِ مضارعًا في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، ولم يقل مثلًا: (وما كنتَ راجيًا أنْ يُلقَى إليكَ الكتابُ)؛ لِما تدلُّ عليهِ صيغةُ المضارعِ مِنَ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، وإذا دخلَ عليها النَّفيُ؛ أفادتِ استمرارَ الانتفاءِ، فيفيدُ الكلامُ

الإشارةُ إلى استمرارِ انتفاءِ الرَّجاءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 378.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 194.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 378.

هنا استمرارَ انتفاءِ الرَّجاءِ منهُ ﷺ، ويُقوّي انتفاءَ الرَّجاءِ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في ﴿وَمَا كُنتَ﴾ كما تقدَّمَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُلْقَىٰٓ﴾:

الإيجازُ بالإشارة إلى دلالة الفعل والاسم معًا

﴿أَن﴾ في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ حرفٌ مصدريٌّ، والمصدرُ المُؤوَّلُ في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ بهِ للفعلِ ﴿تَرْجُوٓاْ﴾، أي: وما كنتَ ترجو إلقاءَ الكتابِ إليكَ.

وهذا التعبير من البلاغة بمكان، حيث جمع القرآن فيه بين دلالة التجدُّد والحدوث مع الاستمرار - المفهومة من صيغة الفعل المضارع في اللفظ - ودلالة الدوام مع الاستمرار المفهومة من المصدر المؤول في المعنى، وكأنَّ إلقاءَ الكتاب إليك؛ وإن تجدَّد في أزمنة متفاوتة، نحو ثلاث وعشرين سنة، فهو كذلك سيظل متجدِّدًا، مع قِدَمِهِ على امتداد الزَّمان، كأنَّه غضٌّ طريٌّ حديثُ عهدٍ بالوحي، وذلك حتى تقوم الساعة، بل وبعد قيامها.

سرُّ التَّعبيرِ بالإلقاءِ دونَ الإنزالِ:

الإشارةُ إلى قُربِ الكتاب منه ﷺ

عُبِّرَ بالإلقاءِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، ولم يقل مثلًا: (وما كنتَ ترجو أنْ يُنزلَ إليكَ الكتابُ)؛ لِما يُشيرُ إليهِ لفظُ الإلقاءِ مِنْ سهولة تحصيل الشَّيءِ لظهوره بالمواجهة بحيث تلقاه ويلقاك، كأنَّهُ مطروح أمامك في الطريق، وهذا أقوى في الدلالة على تمكُّنِهِ منه على وجهٍ لا يُقدَرُ على ردِّهِ[1]، بخلاف الإنزال الذي هو هويٌّ من علوٍ، والذي يدلُّ على بُعد الجهة غالبًا.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يُلْقَىٰٓ﴾:

الإشـــارةُ إلى تمكُّن الرَّسولِ ﷺ منه لِقُربِهِ

المرادُ بإلقاءِ الكتابِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِ اللهِ تقدَّسَ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وحْيُهُ بهِ إليهِ، وقد أُطلِقَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 378.

عليهِ اسمُ الإلقاءِ على وجهِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ[1]، والغرضُ من هذه الاستعارة الإشارةُ إلى أنَّ الكتابَ قريب من النَّبيِّ ﷺ، كأنَّه شيءٌ أُلقي أمامه، يستطيع تحصيلُهُ بسهولةٍ ويسر، والمحافظة عليه دونما بذل سبب منه ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُلْقَىٰٓ﴾:

جيءَ بفعلِ الإلقاءِ مضارعًا في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ لما تفيدُهُ صيغةُ المضارعِ مِنْ كونِ الإلقاءِ أمرًا مستقبلًا بالنِّسبةِ إلى زمنِ الرَّجاءِ، متجدِّدًا حتى يكتمل الكتاب.

الدَّلالةُ على كونِ الإلقاءِ أمرًا مُستقبلًا بالنِّسبةِ إلى زمنِ الرَّجاءِ

نكتةُ بناءِ ﴿يُلْقَىٰٓ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ:

بُنِيَ فعلُ ﴿يُلْقَىٰٓ﴾ في قولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ إشارةً إلى تعيُّنِ الفاعلِ، وأنَّهُ لا يحتاجُ إلى بيانٍ؛ لأنَّ إلقاءَ الكتابِ لا يكونُ إلّا منهُ ﷻ، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِ إلقاءِ الكتابِ، وتفخيم شأن ملقيه، وهو الله تعالى.

الإشارةُ إلى تعيُّنِ الفاعلِ

سرُّ نفيِ رجاءِ الإلقاءِ لا الإلقاءِ:

نُفيَ رجاءُ الإلقاءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، ولم يُنْفَ الإلقاءُ، فلم يقل مثلًا: (وما أُلقيَ إليكَ الكتابُ إلّا رحمةً مِنْ ربِّكَ)؛ للمبالغةِ في نفي الإلقاء، فإنَّ نفيَ رجاءِ الإلقاءِ أبلغُ مِنْ نفيِ الإلقاءِ[2]؛ إذ نفي رجاء الفعل أبلغُ من نفي الفعل نفسه.

نفي رجاء الفعل أبلغُ من نفي الفعل

سرُّ التَّعبيرِ بـ(إلى) في قوله: ﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾:

حرفُ الجرِّ (إلى) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ، وهو يفيدُ أنَّ انتهاءَ غايةِ إلقاءِ الكتابِ بوصولِهِ إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي ذلك مبالغةٌ

المبالغةُ في تشريف النبي ﷺ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 194.
(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 6/ 479.

في تعظيم شأن النبي ﷺ وتشريفه، كأنَّه هو المقصودُ بإلقاء الكتاب وحدَهُ.

نكتةُ تقديم ﴿إِلَيۡكَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

الحصرُ والعِنايةُ بالمُقدَّمِ

قُدِّمَ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في قولِ اللهِ تقدَّسَتْ آلاؤُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ، أي: وما كنتَ ترجو أنْ يُلقَى إليكَ لا إلى غيرِكَ الكتابُ، وللعِنايةِ بالمُقدَّم، وهو إلقاءُ شيءٍ إلى النَّبيِّ ﷺ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو كونُ المُلقَى الكتابَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالكتابِ دونَ القرآنِ:

ملاءمةُ الكتابِ لسياقِ الرَّحمةِ وزيادةُ الثقةِ فيه

اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ لفظُ الكتابِ، واختيرَ لفظُ القرآنِ في قولِهِ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾؛ لأنَّ السّياقَ هنا للرَّحمةِ الَّتي مِنْ ثمراتِها الاجتماعُ المُحكَمُ، وذلكَ مدلولُ الكتابِ[1]، وللإشارة إلى أنَّه محفوظٌ بطريقَيْنِ مُختلفَيْنِ: **الأولى**: استظهاره المدلول عليه بلفظ القرآن، **والثانية**: كتابتُهُ المدلول عليه بلفظ الكتاب، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّه في أعلى درجات التوثيق بطريقَيْنِ مختلفَيْنِ، كلٌّ واحدٍ منهما كافٍ بذاته في ذلك، فكيف لو اجتمعا؟.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

المبالغةُ في كمالِ الكتابِ

تعريفُ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بهِ كتابٌ معهودٌ، وهو القرآنُ[2]، والكتابُ اسمٌ مِنْ أسمائِهِ، أو لاستغراق الأجزاء، وفي ذلك إشارة لكماله في نفسه على أنَّها للعهد، أي: الكتاب الكامل في ذاته وصفاته، وإشارة إلى أنَّه يكتمل إلقاء كلِّ أجزائه على مرِّ السنين، فلا يعتريه نقصانٌ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 378.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 662.

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿إِلَّا﴾ في قولِهِ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾:

احتمالُ ذلك نوعَي الاستثناء

الاستثناءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ محمولٌ على المعنى، كأنَّهُ قيلَ: وما أُلقيَ عليكَ الكتابُ إلّا رحمةً مِنْ ربِّكَ[1]، يعني: هو استثناءٌ متَّصلٌ مِنْ أعمِّ العِلَلِ أو مِنْ أعمِّ الأحوالِ، فيكونُ المعنى: ما أُلقيَ إليكَ الكتابُ لأجلِ شيءٍ مِنَ الأشياءِ إلّا لأجلِ التَّرحُّمِ، أو في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلّا في حالِ التَّرحُّمِ[2].

وعُبِّرَ بأداةِ الاستثناءِ المتَّصلِ؛ إشارةً إلى أنَّ حالَهُ ﷺ قبلَ النُّبوَّةِ - مِنَ التَّنزُّهِ عن عبادةِ الأوثانِ، وعن القُرْبِ منها وعن الحَلِفِ بها، وعن الفواحشِ جميعًا، ومِنَ الانقطاعِ إلى اللهِ بالخَلْوةِ معَهُ والتَّعبُّدِ لهُ - كانَ حالَه حالَ مَنْ يرجو ذلكَ[3]، وإن لم يكن منه رجاء.

ويجوزُ أنْ يكونَ الاستثناءُ منقطعًا[4]، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكنْ) للاستدراكِ، أي: ولكنْ لرحمةٍ مِنْ ربِّكَ أُلقيَ إليكَ الكتابُ[5]؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُخامِرْ نفسَهُ رجاء أنْ يبعثَهُ اللهُ بكتابٍ مِنْ عندِهِ، بل كانَ ذلكَ مُجرَّدَ رحمةٍ مِنَ اللهِ اصطفاءً لهُ[6].

نكتةُ تنكيرِ ﴿رَحْمَةً﴾:

التعظيم والتفخيم

تنكيرُ ﴿رَحْمَةً﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للتَّعظيمِ والتفخيم، أي: أُلقيَ إليكَ الكتابُ لأجلِ رحمةٍ عظيمةٍ كبيرةٍ بالغةٍ مبلغًا لا يُتصوَّر كنهُهُ، ولا يُدرك سعتُهُ لكَ، ثم هي رحمةٌ لجميعِ الخلائقِ بكَ من بعدك، لم تكنْ ترجوها[7].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 334.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 379.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 331.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 194.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 379.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِهِ تبارك شأنُهُ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ للابتداءِ، وهو يفيدُ أنَّ ابتداءَ هذهِ الرَّحمة العظيمةِ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيم ﷻ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في ﴿رَّبِّكَ﴾:

ملاءمةُ الرُّبوبيَّةِ لمقامِ الرَّحمةِ والإحسانِ

جيءَ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ لمناسبةِ هذا الاسمِ الجليلِ لمقامِ الرَّحمةِ والامتنانِ بإلقاءِ الكتابِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ هذا الاسمَ يُنبِئُ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ عن التَّربيةِ والإنعامِ والإحسانِ، والمعنى: إلّا رحمةً مِنْ ربِّكَ، أي: المُحسِنِ إليكَ بإلقاءِ الكتابِ إليك وبجعلِكَ مُصطفًى لذلكَ، بالدُّعاءِ إليهِ، وقصرِ الهِمَمِ عليهِ[1].

لطيفةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّكَ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المُخاطَبِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ لتشريفِ النَّبيِّ ﷺ بكونِهِ مربوبًا للهِ تعالى، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى عُبوديَّتِهِ ﷺ للهِ تعالى الَّتي هي أكرمُ صفةٍ يتحلَّى بها المخلوقُ، وكأنَّ تلك الرحمة الملقاة إليك ما كانت إلّا لأجلك أنت، والناس تبعٌ لك في ذلك.

معنى الفاءِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾:

الدلالةُ على شُكرِ النِّعمةِ بطريقٍ عمليٍّ

الفاءُ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لتفريعِ هذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وما عُطِفَ عليها وما تخلَّلَ بينَهما ممّا اقتضَى جميعُهُ الوعدَ بنصرِهِ ﷺ وظهورِ أمرِهِ وفوزِهِ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّهُ جاءَ مِنَ اللهِ إلى قومٍ هم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 379.

ضلالٍ مُبينٍ، وأنَّ الَّذي رحمَهُ، فآتاهُ الكتابَ على غيرِ ترقُّبٍ منهُ لا يجعلُ أمرَهُ سُدًى، فأعقبَ ذلكَ بتحذيرِهِ مِنْ مُظاهَرةِ الكافرين[1]، وتلك نِعَمٌ عظيمة تستدعي شُكْرَ مُنْعِمها بالعمل، على حدِّ قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13]، وكأنَّ كلَّ هذه النِّعَمِ من ذلك المنعم، تقتضي العملَ له وحده، وعدمَ مظاهرة أعدائه.

دلالةُ النَّهيِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

النَّهيُ عن جميعِ أشكالِ المُعاوَنةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ تحذيرٌ للنَّبيِّ ﷺ مِنْ أدنَى مُظاهَرةٍ للمشركينَ؛ لأنَّ فعلَ الكونِ لمّا وقعَ في سياقِ النَّهيِ، وكانَ سياقُ النَّهيِ مِثلَ سياقِ النَّفيِ؛ كانَ وقوعُ فعلِ الكونِ في سياقِهِ مفيدًا تعميمَ النَّهيِ عن كلِّ كونٍ مِنْ أكوانِ المُظاهَرةِ للمشركينَ، وهي مراتبُ: أعلاها النُّصرةُ، وأدناها المصانعةُ والتَّسامحُ؛ لأنَّ في المصانعةِ على المرغوبِ إعانةً لراغبِهِ، فلمّا شملَ النَّهيُ جميعَ أكوانِ المُظاهَرةِ لهُم؛ اقتضَى النَّهيَ عن مصانعتِهم والتَّسامحِ معَهم.

تقويةُ داعي إبلاغِه ﷺ إيّاهم بمنابذته لهم

أو النَّهيُ نهيُ تكوينٍ لا نهيَ تشريعٍ، على مثال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾، وجيء به للتَّهييجِ؛ لإثارةِ غضبِ النَّبيِّ ﷺ عليهم، وتقويةِ داعي شدَّتِهِ معَهم؛ لأنَّ المنهيَّ عنهُ لا يُتصوَّرُ وقوعُهُ مِنَ الرَّسولِ ﷺ حتَّى يُنهَى عنهُ، فكانَ ذلكَ قرينةً على أنَّهُ مُؤوَّلٌ[2]، والمعنى: دُمْ على عدمِ كونِكَ ظهيرًا لهُم[3].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المجزومِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على طلبِ التجدُّدِ والاستمرارِ على عدمِ كونِهِ ﷺ مُعينًا للكافرينَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 194.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 195.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 588.

نكتةُ الإتيانِ بنونِ التَّوكيدِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾:

جيءَ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لتأكيدِ النَّهيِ عن مُظاهَرةِ الكافرينَ ومعاوَنتِهم[1]؛ لأنَّ مُظاهَرتَهم أمرٌ خطيرٌ يقتضي المقامُ مزيدَ التَّحذيرِ منهُ.

دلالةُ صيغةِ (فعيلٍ) في ﴿ظَهِيرًا﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِه ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ المبالغةِ في النهي عن المُظاهَرةِ والمعاوَنةِ، ممّا يستدعي توكيدَ التَّحذيرِ مِنَ التَّلبُّسِ بذلكَ.

المبالغةُ في النَّهي عن المُظَاهَرةِ

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

لمّا شملَ النَّهيُ في قولِه سبحانَهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ جميعَ أكوانِ المُظاهَرةِ لهُم؛ اقتضَى النَّهيَ عن مصانعتِهم والتَّسامحِ معَهم، وهو يستلزمُ الأمرَ بضدِّ المُظاهَرةِ، فيكونُ كنايةً عن الأمرِ بالغِلْظةِ عليهِم، كما هو صريحُ قولِه تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73][2].

الإشارةُ إلى الأمرِ بالغِلْظةِ عليهِم

دلالةُ (أل) التعريفِ في: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

(أل) في قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ موصولة، واللفظ (الكافرين) صلتها، والموصول إذا دخل على الجمع يُفيد عموم الأفراد، فيكون المعنى: فلا تكونَنَّ ظهيرًا لكلِّ كافرٍ، والنهي عن مظاهرة عموم الكافرين هنا لا يثبت جوازَ مظاهرة بعضِهم، إمّا لأنَّ الحكم في ذلك أغلبيٌّ، أو لوجود أدلة أخرى على ذلك.

النهي عن مظاهرة عموم الكافرين لا يثبت جوازَ مظاهرة بعضِهم

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ رُسوخِهم في الكفرِ، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ الَّتي لا ينفكّونَ

الإشارةُ إلى رُسوخِهم في الكفرِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 279.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 195.

عنها، فضلًا عن كونِ اللّامِ في اسمِ الفاعلِ موصولةً، فتُشيرُ إلى علَّةِ النَّهيِ عن مُظاهَرتِهم، وكأنَّ المعنى: فلا تكنْ لهُم ظهيرًا؛ لأنَّهم كافرونَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأمل والرَّجاء والطَّمع:

الطَّمعُ أشدُّ مِنَ الأملِ والرَّجاءِ

فُرِّقَ بينَ الأملِ والرَّجاءِ والطَّمع: بأنَّ الأملَ: هو الرَّجاءُ الَّذي فيهِ تثبُّتٌ وطولُ انتظارٍ، والرَّجاءَ: هو الأملُ الَّذي يكتنفُهُ خوفٌ واهتمامٌ واكتراثٌ، والطَّمعَ: هو شدَّةُ الرَّجاءِ[1].

وفُرِّقَ أيضًا بينَ الرَّجاءِ والطَّمعِ: بأنَّ الرَّجاءَ هو الظَّنُّ بوقوعِ الخيرِ الَّذي يعتري صاحبَهُ الشَّكُّ فيهِ، إلّا أنَّ ظنَّهُ فيهِ أغلبُ، ولا يكونُ الرَّجاءُ إلّا عن سببٍ يدعو إليهِ، مِنْ كرمِ المرجوِّ ونحوِهِ، ويتعدَّى بنفسِهِ، تقولُ: رَجَوْتُ زيدًا، والمُرادُ: رَجَوْتُ الخيرَ مِنْ زيدٍ؛ لأنَّ الرَّجاءَ لا يتعدَّى إلى أعيانِ الرِّجالِ.

وأمّا الطَّمعُ؛ فهو ما يكونُ مِنْ غيرِ سببٍ يدعو إليهِ، فإذا طمعتَ في الشَّيءِ؛ فكأنَّكَ حدَّثتَ نفسَكَ بهِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ هناكَ سببٌ يدعو إليهِ، ولهذا ذُمَّ الطَّمعُ، ولم يُذَمَّ الرَّجاءُ، والطَّمعُ يتعدَّى إلى المفعولِ بحرفٍ، تقولُ: طَمِعْتُ فيهِ[2].

الإلقاءُ والرَّميُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبْذُ:

الرَّمْيُ أعمُّ مِنَ الجميعِ

الرَّمْيُ: هو الأصلُ، ويُطلَقُ على الرَّمْيِ بالمعاني والأعيانِ، وعلى كلِّ حالاتِ الرَّمْيِ، فيدخلُ ضمنَ معناهُ العامِّ الإلقاءُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبْذُ؛ فالإلقاءُ يعني: طَرْحَ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي تريدُهُ، وحيثُ تراهُ، أو حيثُ تُحِبُّ.

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 192 - 194.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 248.

والرَّجْمُ أشدُّ معاني الرَّمْيِ؛ إذ هو في الأصلِ الرَّمْيُ بالحجارةِ، ويُستعارُ في أشدِّ حالاتِ الشَّتْمِ.

والقَذْفُ: هو رَمْيُ الشَّيءِ مِنْ بُعْدٍ، ويُستعارُ لرَمْيِ الإنسانِ بالتُّهَمِ البعيدةِ عن سُلوكِهِ وأخلاقِهِ.

والطَّرْحُ والنَّبْذُ كلاهما يعني: إلقاءَ الشَّيءِ وإبعادَهُ؛ لقلَّةِ الاعتدادِ بهِ، والفرقُ بينَهما: أنَّ النَّبْذَ أشدُّ مِنَ الطَّرْحِ[1].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 183 - 186.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»